جامعة إب
مجلة الباحث الجامعي

أثر نظام الامتيازات الأجنبية على الوجود اليهودي في القدس في العهد العثماني (1516 - 1917م)

أحمد أحمد العرامي
قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة إب، اليمن

الملخص:

تناول هذا البحث أثر نظام الامتيازات الأجنبية على الوجود اليهودي في القدس في العهد العثماني (1516-1917م)، إذ تم التطرق إلى وضع القدس الإداري، وانعكاس نظام الامتيازات الأجنبية على القدس، والتغلغل الأوربي في القدس، كما تم إيضاح دور بريطانيا في تعزيز الوجود اليهودي في القدس، وصولاً إلى تنظيم الهجرات اليهودية إلى القدس، وكذلك سياسة الدولة العثمانية تجاه الهجرات اليهودية، وأوضح النشاط الصهيوني بعد مؤتمر بازل حتى الاحتلال البريطاني للقدس عام 1917م.

المقدمة:

تزايد نفوذ الدول الأوربية في القدس خلال العهد العثماني تدريجيًا بسبب نظام "الامتيازات الأجنبية Capitulations" الذي منحته الدولة العثمانية للدول الأوربية منذ عام 1535م أثناء قوتها، بهدف تسهيل المعاملات التجارية، وتشجيع الأوربيين لاستثمار أموالهم في الدولة العثمانية وعندما بدأت تضعف تحول نظام الامتيازات إلى عبء تحملته الدولة العثمانية؛ لأن الدول الأوربية اتخذت منها وسيلة ضغط للتدخل في شؤون الدولة العثمانية الداخلية وكانت تُعدُّ هذه الامتيازات حقوقاً مكتسبة لها ولرعاياها.

كما أن نظام الامتيازات أدى إلى تأسيس القنصليات الأوربية في القدس التي اشتد تنافسها على النفوذ وبلغ ذروته في أربعينيات القرن التاسع عشر، وقد ارتبط هذا التنافس بالمصالح الدينية والسياسية، ولم يكن مقتصرًا على الأمور التجارية والمالية فقط؛ بل وصل التنافس إلى حد اشتعال حرب القرم(1853- 1856م) بسبب خلاف روسيا وفرنسا، وإدعاء كل منهما الأحقية بالإشراف على الأماكن المقدسة، في القدس، كما أن إدخال بريطانيا لليهود تحت حمايتها أسهم في زيادة الهجرات اليهودية إلى القدس، لاسيما بعد احتلالها لمصر عام 1882م، وبلغ التحالف بين الحركة الصهيونية وبريطانيا قمته بإصدار "تصريح بلفور Balfour Declaration " في 2 نوفمبر 1917م، والذي تضمن وعدًا بريطانيًا للحركة الصهيونية بإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين.

أولاً: انعكاس نظام الامتيازات الأجنبية على القدس:

سيطرت الدولة العثمانية على بلاد الشام عام 1516م، وأبقت على التقسيمات الإدارية من دون أي تغيير حتى عهد السلطان سليمان القانوني (1520 - 1566م) الذي وضع أنظمة إدارية جديدة قُسمت بموجبها بلاد الشام إلى ثلاث ولايات هي: ولاية دمشق، وولاية حلب، وولاية طرابلس. كان لواء (سنجق) القدس يتبع ولاية دمشق[1]؛ ظل لواء (سنجق) القدس يتبع ولاية دمشق حتى عام

1874م عندما تحول متصرفية عثمانية مستقلة، ترتبط مباشرة بوزارة الداخلية باستانبول، واحتفظت القدس وجنوب فلسطين بهذا الوضع الخاص حتى الاحتلال البريطاني عام 1917م[2].

وحدت الدولة العثمانية فلسطين بألويتها الثلاثة (القدس، ونابلس، وعكا) قبيل سيطرة محمد علي باشا على بلاد الشام(1831- 1840م). وقد اختلفت أساليب حكم محمد علي باشا لبلاد الشام عن أساليب الحكم العثماني؛ فقد حصلت تطورات جديدة في مجال الحكم والإدارة في لواء (سنجق) القدس؛ حيث تم تعيين عدد من أبناء القدس في المناصب الإدارية المختلفة، كما قام بتأليف مجالس للنظر في الشؤون المحلية[3]، وفرض التجنيد الإجباري بالقوة، بالرغم من مقاومة أبناء البلاد له بالسلاح[4]. وأصبحت القدس هي العاصمة المركزية للمناطق الفلسطينية الوسطى والجنوبية بعد عودة السيادة العثمانية على البلاد عام 1841م[5].

تغير الوضع الإداري في لواء (سنجق) القدس، منذ خمسينيات القرن التاسع عشر؛ فقد طرأ تحول هام على الحياة السياسية يمثل في تشكيل المجالس المختلفة في المدينة، مثل: (المجلس البلدي، ومجلس الإدارة) والمجلس البلدي يتألف من خمسة أعضاء معينين (ثلاثة مسلمين، ومسيحي، ويهودي) يرأسهم مسلم. وفي عام 1877م صدر قانون البلديات الذي حدد مهام وواجبات المجالس البلدية، وطرق تشكيلها، ونص على وجوب أن يتكون من ستة إلى اثني عشر عضوًا ينتخبون لمدة أربع سنوات، على أن يتم استبدال نصفهم كل عامين؛ أما الرئيس فيعين من بين الأعضاء المنتخبين[6]. ضم المجلس البلدي في القدس عام 1908م عشرة أعضاء: (ستة منهم من المسلمين، واثنان من المسيحيين، واثنان من اليهود). وفي العام نفسه اشترك ألف ومائتا مواطن من أهالي القدس في الانتخابات (سبعمائة من المسلمين، وثلاثمائة من المسيحيين، ومائتان من اليهود)، وكان للبلدية ميزانية مواردها من المنح الحكومية، وإيرادات الضرائب، والرسوم[7].

حاولت بلدية القدس أن تحسن البنية التحتية وأوضاع المدينة، وشملت نشاطاتها الأولى إجراءات لتنظيف المدينة وإنارتها، ورصف الشوارع، وإزالة عوائق السير، وتزويد المدينة بالماء، وإنشاء شبكة للمجاري... توسعت فيما بعد باستمرار حتى نهاية الحكم العثماني[8]، وتشكلت فيها قوة شرطة، وعينت البلدية طبيباً يعالج المرضى مجاناً، وافتتح مشفى حكومي عام 1891م، وأصبحت البلدية مسؤولة عن إصدار تراخيص البناء. وقد فتح سجل بهذه التراخيص منذ أواخر القرن التاسع عشر[9]. أما مجلس الإدارة فكان يضم: المتصرف، والقاضي، والمفتي، وأمين الخزنة، وممثل عن طائفة الروم (الأرثوذكس)، وممثل عن الطائفة اللاتينية، وممثل عن الطائفة اليهودية[10]، وبمقتضى قانون الولايات العثماني الصادر عام 1864م، وقانون إدارة الولاية الصادر عام 1871م. كان من حق مجلس الإدارة النظر والبت في المسائل التي تتعلق بالأشغال العامة، والزراعة، وتسجيل الأراضي، والمالية، وجباية الضرائب، والشرطة[11]. ولم يتم إنشاء مجلس عمومي في القدس إلا عام 1913م، وكان يتألف من الأقضية المختلفة؛ حيث كان يجتمع مرة واحدة في العام للنظر في الميزانية[12]. وتم تمثيل المدينة ولواء (سنجق) القدس في البرلمان العثماني[13]؛ حيث مثل يوسف الخالدي القدس في مجلس (المبعوثان) العثماني الأول. ومثّلها مرة أخرى عام 1896م ومثل القدس روحي الخالدي، وسعيد الحسيني عام 1908م، وفي عام 1912م أعيد انتخاب روحي الخالدي، وعثمان النشاشيبي، وانتخب راغب النشاشيبي، وسعيد الحسيني، وفيضي العلمي، لمجلس

المبعوثان العثماني عام 1914م[14].

عقدت الدولة العثمانية أول اتفاقية للامتيازات الأجنبية "Capitulations" مع فرنسا عام 1535م، والتي بموجبها ضمنت الدولة العثمانية لرعايا فرنسا حقهم في الحرية الدينية، ومنحت الإكليروس اللاتيني حق حراسة الأماكن المقدسة بدلاً من الإكليروس الأرثوذكسي في القدس[15].

جرت محاولات لتعيين قنصل لفرنسا في مدينة القدس عام 1621م، وكانت المحاولة الأولى تعيين "جان لامبرور Jean Lempereur"، لكن تعيينه اصطدم بمعارضة قوية من قبل أهل القدس، فصدر الأمر السلطاني بترحيله عن القدس. حاولت فرنسا بعد ذلك تعيين قنصل آخر وهو "دارامون Daramon"، فأصدر السلطان العثماني مصطفى الأول (1617- 1623م) فرماناً عام 1621م يقضي بتعيينه، لكنه اصطدم كذلك برفض أهل القدس لتخوفهم من المطامع الأوربية في المدينة[16]، حيث قاموا بتقديم عريضة للسلطان يبينون فيها أسباب رفضهم لتعيين القنصل المذكور جاء فيها ".. فإن أقام عندنا هذا القنصل المذكور، وركب الخيل، وتقلد السلاح، يلزم منه مفسدة عظيمة، لاسيما أن بلدتنا محل أنظار الكافرين، ... ونحن نخشى من جلب أناس آخرين غيره بدسائس يعلمها المذكور...، ونخاف من الإستيلاء علينا بسبب ذلك، كما حصل في الزمن السابق مراراً... والمرتجى من الصداقات السلطانية أمرًا شريفًا يدفعه عن المكوث في هذه الديار"[17].

ساءت العلاقات بين الدولة العثمانية وفرنسا على إثر طرد اليسوعيين من استانبول، ثم أصدر السلطان مراد الرابع (1623 - 1640م) ثلاثة فرمانات سلطانية منحت الروم الأرثوذكس الصدارة والتقدم على اللاتين في الاحتفالات الدينية في القبر المقدس (كنيسة القيامة)، لكن هذه الفرمانات أثارت اللاتين حتى صدر فرمان جديد عام 1636م يؤيد حقوق لّلاتين[18].

تقدّم سفير فرنسا في استانبول عام 1670م لدى الباب العالي بطلب تجديد الامتيازات على أساس الاعتراف بملك فرنسا حامياً للنصرانية في الدولة العثمانية، على أن تشمل الحماية الفرنسية رعايا الدولة العثمانية من النصارى الكاثوليك، لكن الباب العالي رفض التوسع في امتيازات الحماية الفرنسية وقصرها على الكاثوليك اللاتين. وفي عام 1690م صدر فرمان مكّن رهبان اللاتين الكاثوليك في القدس من الهيمنة على الأماكن المقدسة، وعدَّ هذا الفرمان وثيقة لها أهميتها، ومرجعاً لجميع الإتفاقيات والمؤتمرات التي تناولت موضوع الأماكن المقدسة، وحقوق الطوائف فيها[19].

تعرضت الدولة العثمانية لهزائم عدة عقدت على إثرها معاهدة "كارلوفيتز Karlowitz" في 26 ديسمبر 1699م، بين الدولة العثمانية من جهة، والنمسا وروسيا والبندقية وبولونيا من جهة أخرى. وترتب على ذلك خسائر إقليمية للدولة العثمانية في أوربا، كانت نتيجتها الانحدار الملحوظ لصورة الدولة العثمانية وهيبتها في نظر الأوربيين وفي نظر رعاياها.

اضطرت الدولة العثمانية إلى التخلي التدريجي عن المقاطعات الأوربية إثر الهزائم التي منيت بها أمام النمسا، وقد انتهى الصراع بين الدولتين بعد توقيع معاهدة "سيستوفا Sistova" عام 1791م.

في الربع الأول من القرن الثامن عشر برزت روسيا كقوة كبرى سعت إلى الوصول إلى البحار الدافئة، ودخلت من أجل ذلك في صراع مع الدولة العثمانية التي رفضت المشاريع التوسعية الروسية، وقد تجددت الاشتباكات بينهما مرة أخرى في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، وانتهى هذا الصراع بتوقيع معاهدة "كجك قينارجه Kuchuk Kainarji" في يونيو عام 1774م، التي تخلت الدولة العثمانية بموجبها عن سيادتها على التتار في القرم،

وأصبحت روسيا بموجبها حامية لمصالح وحقوق الكنيسة الأرثوذكسية بالأماكن المقدسة، وأكدت حق رجال الدين، والحجاج الروس في زيارة القدس دون دفع الضرائب[20].

إن الخلاف حول القدس بين الدول الأوربية لا يقتصر على أهميتها من ناحية التجارة والمال والمواصلات فقط؛ بل كان مرتبطاً بالمصالح الدينية والسياسية المتزايدة والمختلفة، والتي كانت تتركز على المدينة[21]، لذلك تغيرت السياسة العثمانية عدة مرات بشأن الطوائف التي تقطن القدس، فقد أصدر السلطان عثمان الثالث (1699- 1757م) فرماناً أعاد فيه تأكيد حق الروم الأرثوذكس في جميع الأماكن المقدسة التي أخذت منهم عام 1690م - ومنها كنيسة القيامة - ولم يترك للاتين إلا حق الزيارة[22].

أكدت الحملة الفرنسية على فلسطين عام 1799م الأهمية الإستراتجية لها في المخططات الإستعمارية، حيث بدأ الإهتمام الأوربي بشكل مكثّف بالمنطقة منذ ذلك الوقت. ويشير بعض الباحثين إلى أن الحملة الفرنسية قد غرست البذور الأولى للمشكلة الصهيونية، فقد ورد أن الدوائر الإستعمارية الفرنسية أعدت خطةً عام 1798م لإقامة كومنولث يهودي في فلسطين مقابل تقديم اليهود قرضاً لحكومة الإدارة الفرنسية التي كانت تعاني من أزمة مالية خانقة[23]. ووفقاً للخطة الفرنسية أصدر"نابليون بونابرتNapoleon" Bonaparte فور وصوله إلى الإسكندرية في يوليو 1798م نداء حث فيه جميع اليهود في آسيا وإفريقيا على الالتفاف حول رايته "لإعادتهم" إلى القدس، وإعادة بناء هيكلهم من جديد مقابل مساعدتهم له في غزو فلسطين. وقد كرر هذا النداء أثناء حصار عكا في إبريل عام 1799م بوصفهم "ورثة فلسطين الشرعيين"[24].

لم تظهر الجاليات اليهودية اهتماما جدياً بنداء نابليون المتضمن وعدًا بإقامة وطن لليهود في فلسطين؛ حيث كان اهتمامها في آخر القرن الثامن عشر يتعلق بتثبيت أوضاعها الإقتصادية، والإجتماعية في البلاد التي تقيم فيها، فضلاً عن أن القدس لم تكن مدرجة ضمن لائحة المواجهات التي تعرضت لها بعض المدن الفلسطينية مثل: غزة، ويافا، وعكا، ... والقدس آنذاك لم تكن مركزاً من مراكز السلطة المحلية العثمانية.

ثانيًا: التغلغل الأوربي في القدس.

لقد غيرت فترة حكم محمد علي لبلاد الشام (1831-1840م). أوضاع مدينة القدس، فقد حاول محمد علي باشا كسب تأييد الدول الأوربية لسيطرته على سوريا بانتهاج سياسة أدت إلى الوجود المباشر للأوربيين في أكناف القدس، وعمل على المساواة في الوضع الاجتماعي لأعضاء الأقليات الدينية، وفتح البلاد أمام النشاط التبشيري والقنصليات الأوربية[25]، وأمّن طريق الحجاج إلى القدس، وأزال أشكال التمييز الرسمي ضد أتباع الطوائف غير الإسلامية، وأصبح هؤلاء يعاملون على قدم المساواة مع سائر الرعايا. هذا من جهة، ومن جهة أخرى سهّل محمد علي باشا للأوربيين التغلغل السياسي، والديني، والثقافي، بأن سمح لهم بفتح قنصليات في داخل البلاد، وبتوسيع النشاطات الدينية التبشيرية، والإعتراف بمؤسساتهم[26].

تنافست الإرساليات الأجنبية فيما بينها على إرسال رجال الدين، وبناء الكنائس والأديرة، والمستشفيات، والمدارس، في القدس وضواحيها، وكانت جمعية لندن للتبشير بالنصرانية بين اليهود التي تأسست عام 1825م أسبق هذه الإرساليات، فأصبح لها بعد عام 1840م مركزاً في القدس[27].

اشتركت بريطانيا وبروسيا عام 1841م في تأسيس أسقفية انجليكانية في القدس، غايتها التبشير بالمذهب البروتستنتي بين اليهود، وكان "مايكل الكسندر Michael Alexander" اليهودي الأصل أول

أسقف لها، ونتج عن ذلك نشاط تبشيري مكثف، وتنافس حاد بين الإرساليات التبشيرية المختلفة[28].

ساندت الدول الأوربية الدولة العثمانية لإخراج محمد علي باشا من بلاد الشام، ولكن بعد زوال حكمه تحتّم على الدولة العثمانية أن تبقي على التغيرات التي أتى بها، فأصبح للأوربيين اليد الطولى في التدخل في شؤون الدولة العثمانية الداخلية، لاسيما فيما يتعلق بنفوذ هذه الدول أو من يمثلها في القدس.

عمل السلطان عبدالحميد الأول (1839- 1861م) على إظهار الدولة العثمانية بمظهر الدولة الآخذة بالإصلاح، فأصدر مرسومين، الأول "خط شريف كلخانة عام 1839م"، والثاني "خط شريف همايون عام 1856م"الذي عرف بمنشور التنظيمات الخيرية وكلاهما يقضي بالمساواة بين جميع الرعايا العثمانيين في الحقوق والواجبات دون تمييز، بغض النظر عن المعتقدات الدينية[29]. ونتيجة لهذه الإصلاحات شهدت فترة الأربعينيات وما بعدها من القرن التاسع عشر اهتماماً أوروبياً واسعاً بالقدس؛ فكانت بريطانيا أول دولة أوربية تؤسس قنصلية لها في القدس عام 1839م، ثم لحقت بها كل من فرنسا، وبروسيا، وسردينيا عام 1843م، والنمسا عام 1849م، وإسبانيا عام 1854م، والولايات المتحدة عام 1857م، وروسيا عام 1858م، واليونان عام 1862م، وإيطاليا عام 1872م [30].

قامت حرب القرم (1853-1856م) بين روسيا من جهة، والدولة العثمانية وفرنسا وبريطانيا من جهة أخرى، وكان سبب الحرب النزاع بين فرنسا وروسيا حول الإشراف على الأماكن المقدسة في فلسطين، وأدت الحرب إلى دخول الدول الاوربية مضمار السباق فيما بينها من أجل تأمين الامتيازات وتوطيد الوجود الديني والثقافي في القدس. وقد تمكنت فرنسا من تحقيق مكتسبات جديدة عندما حصلت عام 1856م على مبنى المدرسة الصلاحية بأمر من السلطان عبدالحميد الذي قدّمه هدية إلى الإمبراطور "نابليون الثالث Napoleon III"، فحولت فرنسا المبنى إلى كنيسة[31]، وكثّف القنصل الفرنسي اتصالاته فأعفيت جميع المؤسسات الفرنسية، الدينية والخيرية القائمة والتي كانت قيد الإنشاء من الضرائب والرسوم الجمركية عام 1901م[32].

أسست روسيا قنصلية في القدس عام 1858م، وفي العام نفسه وصل قنصل روسي إلى المدينة، وتم نقل بطريرك الأرثوذكس، الذي أقام كرسيه حتى ذلك الوقت في استانبول إلى مدينة القدس[33]. وقد اهتم الساسة الروس بوجودهم الطائفي؛ حيث ورد في أحد التقارير الصادرة من وزارة الخارجية الروسية إلى القيصر ما يلي: "ينبغي علينا أن نبني وجودنا في الشرق، لا عن طريق السياسة؛ بل عن طريق الكنيسة... إن القدس هي مركز العالم، وإرسالياتنا ينبغي أن تكون هناك"[34]. وما إن جاء عام 1904م حتى وصل عدد الروس في القدس إلى ثمانية آلاف شخص، ولكن الاهتمام الروسي توقف عندما قامت الثورة البلشفية عام 1917م[35].

عملت القنصلية البروسية (الألمانية فيما بعد) في القدس على تعزيز نفوذها في دوائر الحكم، وأسست "جمعية بيت القدس Der Jerusalem Verein" على يد "فريدريش شتراوس Friedriech Strauss" وقد أمدتها رئاسة الكنيسة الألمانية بالأموال، فافتتحت لها مراكز عديدة في فلسطين، أهمها: مركز القدس[36]، فبلغ النفوذ الألماني في القدس ذروته بزيارة الإمبراطور الألماني "فيلهلم الثاني Wilhelm II" للأماكن المقدسة عام 1898م؛ إذ أرسى حجر الأساس لكنيسة الروم الكاثوليك على قطعة أرض أهداها السلطان عبد الحميد الثاني (1876 - 1909م) إليه على جبل صهيون[37]، فضلاً عن افتتاح فرع للبنك الألماني في القدس سمي (البنك الألماني الفلسطيني)[38].

لكن الدولة العثمانية خشيت تغلغل النفوذ الألماني، فوضعت العراقيل أمام انتقال الأراضي إلى المستوطنين الألمان[39].

تولت القنصلية البريطانية في القدس رعاية المصالح الأمريكية حتى تأسيس القنصلية الأمريكية عام 1857م، إذ كان الأمريكان يمارسون نشاطهم في القدس منذ عام 1819م على شكل إرسالية دينية، وقد تحسنت العلاقات العثمانية الأمريكية بعد توقيع المعاهدة التجارية عام 1830م، وفي عام 1866م، قام بعض الرعايا الأمريكان من اتباع كنيسة المسيح بإنشاء مستعمرة في قضاء القدس، لكن السلطات العثمانية نظرت بارتياب إلى هذه الجماعة، ووضعت العراقيل أمامها، فتركوا المستعمرة التي انتقلت إلى جماعة الهيكل الألمانية[40]. عارضت فرنسا تأسيس قنصلية إيطالية في القدس لتحتكر وحدها حماية اللاتين في الأرض المقدسة – على الرغم من أن معظم مؤسساتهم كانت ايطالية الجنسية - ، مما شجع إيطاليا على تأسيس قنصلية لها في القدس عام 1872م، وهذا بدوره أضعف النفوذ الفرنسي فيها، وأدى إلى إثارة الخلاف بين القنصلين: الفرنسي والإيطالي عام 1880م، بسبب إدعاء كل منهما حماية رجال الدين اللاتين ومؤسساتهم الدينية[41].

ثالثًا: دور بريطانيا في تعزيز الوجود اليهودي في القدس.

استقر في بلاد الشام عند بداية الحكم العثماني عام 1516م نحو ألف عائلة يهودية في مدن القدس، وصفد، والخليل، منها ثلاثمائة في القدس. ولم يكن الوجود اليهودي في القدس ظاهرة تستدعي الاهتمام؛ إذ إنهم اشتكوا للسلطان العثماني سليم الثاني (1566- 1574م) عام1572م من المبالغة في عددهم عند تحصيل الضرائب، مما دفع بالسلطان لإجراء إحصاء جديد كشف أن عدد الذكور منهم في المدينة مائة وخمسة عشر (115) شخصًا[42].

ارتفع عدد الطائفة اليهودية في القدس عندما وصل إليها قسم من اليهود السفارديين الذين طردوا من إسبانيا، والبرتغال، وازداد العدد أيضًا في القرن الثامن عشر عندما قدم إليها بعض يهود بولونيا. غير أنَّ هذه الزيادة لم تكن تذكر؛ إذ أكد أحد أعضاء صندوق اكتشاف فلسطين الذين أشرفوا على عملية التنقيبات الأثرية في فلسطين، وهو " الكابتن كوندر Capt.Conder" "إن عدد اليهود في مدينة القدس عام 1793م لم يكن يتجاوز بضع مئات"[43].

بدأت أعداد اليهود تتزايد بشكل ملفت للنظر مع بداية القرن التاسع عشر، ففي عام 1806م بلغ عددهم نحو ألفي (2000) نسمة في القدس، وارتفع ليصل إلى حوالي ثلاثة آلاف (3000) نسمة عام 1819م، ثم طرأت زيادة أخرى في العقدين التاليين نتيجة هجرة مئات من يهود صفد بسبب الهزات الأرضية التي حدثت عامي 1834 و1837م[44].

أعفى محمد علي باشا الطائفة اليهودية في القدس من المغارم التي كانت مفروضة في ظل الحكم العثماني، فتحسنت أحوالها، وأصبح لها تمثيل في المجالس المحلية الجديدة، كما خفضت عنها الضرائب، وترتب على ذلك تدفق اليهود على القدس بأعداد كبيرة للاستيطان فيها، بعد الحصول على تراخيص بناء مساكن وأمكنة عبادة لهم خارج أسوار المدينة[45].

قام السير "موسى مونتيفيوري Moses Montefiore" الثري اليهودي الإنجليزي بزيارة إلى فلسطين عام 1835م، وفي العام نفسه عمل على تأسيس أول مدرسة لليهود في مدينة القدس[46].

شجعت تلك الأعمال اليهود على التقدم إلى مجلس الشورى المحلي في القدس بطلب السماح لهم بشراء

الأمـلاك والأراضـي مقابـل دفـع مبـالغ معينـة مـن المـال للحكومـة مثـل بـاقي الرعايـا ؛ غـير أن هـذا الطلـب قوبـل بالرفض من محمد علي باشا، وذلك بالكتاب الـذي أرسـله إلى متسـلم القـدس : "... ولـدنا العزيـز مصـطفى آغـا العبـد متسلم القدس.... ورد لنا تحرير، وفي طية جورنال وارد من القـدس الشـريف.... مـن وكيـل طائفـة "السـكناج" بالقـدس الشـريف بقصـد الإسـتعلام بأنـه هـل يترخـص لهـم بشـراء الأملاك والأراضي.... فهمنا كيفية جواب المجلس بـأن هـذه ماسـبق لهـا أمثـال بالوجـه الشـرعي أيضـاً غـير مسـاعد للمستأمنين المذكورين في جميع ما يستدعون حيث أراضي تلك الديار برّية ووقفية، فالتماسهم بذلك لا يوافق حكـم الشريعة"[47].

تحالفت الحركة الصهيونية مع الدوائر الاستعمارية التي أدركت أهمية القدس من جميع جوانبها ؛ حيث اتخذت من الحركة الصهيونية أداة لتحقيق مصالحها الاستعمارية في المنطقـة العربيـة، فقـد اهتمـت بريطانيـا بتـوطين اليهـود في فلسطين لإيجاد ركيـزة لهـا تمكنهـا مـن التـدخل في شـؤون الدولة العثمانية، ابتداء من الأمور المالية والقضاء، وانتهاء بالشؤون الطائفية والقرارات السياسية.

وقعـت فلسـطين بصـورة عامـة، والقـدس بصـورة خاصة، منذ زمن حكم محمد علي باشا في دوامة المنافسة الأوربية نتيجة لضعف الدولة العثمانية. ولّما كان القضاء على الدولة العثمانية أمرًا غير وارد في القرن التاسع عشر، فإن الدول الأوربية لم تسعَ لفرض سيطرتها الإقليمية في فلسطين ؛ بل سعت لبسط نفوذها[48]. وكانت أهم الطرق لـذلك سياسـة حمايـة الأقليـات الدينيـة، لـذلك سـعت بريطانيا إلى تأسيس أسقفية انجليكانية في القدس، فـأجرت بريطانيا مفاوضات مع محمد علي باشا والدولة العثمانية، موضـحة الأسـباب الداعيـة لـذلك، "كـون القـدس مـن الأماكن المقدسة التي تستقبل الزوار البريطانيين في الوقت الذي لا يوجد فيه لبريطانيا حتى وكالة قنصلية"، كما أن حاجة الطائفة البروتستانتية في القدس إلى الدعم والحماية، دفعـت بريطانيـا إلى تـدعيم نفوذهـا باسـتخدام هـذا الأسلوب[49].

بدأ الاهتمام الرسمي البريطاني باليهود في فلسطين عام 1839م، ففي هذا العام أقامت بريطانيا قنصلية في القدس، وعينت لها المستر "وليم يونغ William Young" ولم يكن لبريطانيا وكنيستها الإنجيلية أية حقوق أو مصالح تدعيها في علاقاتهـا بالقـدس، فعمـدت إلى ادعـاء قيـام قنصـليتها بالقدس لحماية ولرعاية مصالحها[50].

قامـت بريطانيـا بتأسـيس أسـقفية بريطانيـة بروسـية في القدس عام 1841م، وبناء كاتدرائية بروتوستانتية "كنيسة المسيح Christ Church" الـتي دشّـنت عـام 1849م، إذ تمكن البروتستانت بعد ذلك من الحصول على الإعتراف لهم بطائفة دينية رسمية في الدولة العثمانية، الأمر الـذي دعم الدور البريطاني في حماية اليهود والبروتستانت معاً، ويورد "شولش Scholch" أحد التقارير التي أرسلها "يونـغ Young" إلى لندن إذ يقول فيه: "هناك فريقان سيطالبان في المستقبل بلا شك بأن يكون لهما حق قوي في إبداء الرأي في شـؤون فلسـطين، وأحـد هـذين الطـرفين اليهـود الـذين أعطاهم الله في الأصل ملكية هـذه البلاد، والفريـق الآخـر المسيحيون البروتسـتنت... وبريطانيـا العظمـى هـي الحـامي الطبيعي لكلا الفريقين"[51].

عمـل الأسـقف الأول للأسـقفية الانجليكانيـة "مايكـل الكسـندر Michael Alexander" علـى تنصـير اليهـود وإعـادتهم (عـودة اليهـود) The Restoration of The Jews" وهي الفكـرة الـتي نـادى بهـا "اللـورد شافتسـبوري Lord Shaftesbury" المقـرّب مـن صـانعي القـرار في بريطانيـا، وأكثـر المتحمسـين لهجـرة اليهـود وتـوطينهم في فلسطين. غير أن نجاح "الكسندر" في هذا المجال لم يتجاوز في

الواقع الحد الأدنى، لذلك فإن خليفته "صموئيل غوبات Samuel Gobat" الذي عينته بروسيا وفقاً للدور المتفق عليه مع بريطانيا[52] قد نحّى (تنصير اليهود) جانبًا، ووجه حماسته التبشيرية إلى المسيحيين الأرثوذكس العرب[53]. وفي موازاة هذا التحول في نشاطات الأسقفية والتوجهات السياسية، وضع اليهود في فلسطين تحت الحماية السياسية لبريطانيا[54].

سعت بريطانيا لتوطين اليهود في فلسطين لإيجاد قوة لها للوقوف في وجه أي مشروع لتأسيس دولة قوية في بلاد الشام، والجزيرة العربية؛ لأن قيام مثل هذه الدولة يهدد مصالحها، ويعرض خطوط مواصلاتها مع الهند للخطر. فقد أرسل "اللورد بالمرستون Lord Palmerston" وزير خارجية بريطانيا (1830- 1841م) ورئيس وزرائها (1846- 1851م) مذكرة إلى سفيره "بونسونبي Ponsonby" في استانبول عام 1840م ورد فيها: "يقوم بين اليهود الآن في أوروبا شعور قوي بأن الوقت الذي ستعود فيه أمتهم إلى فلسطين يأخذ في الاقتراب... ومن المعروف جيداً أن يهود أوربا يمتلكون ثروات كبيرة... ومن الواضح أن أي قطر يختار أعدادًا كبيرة من اليهود سيحصل على فوائد كبيرة من الثروات التي سيجلبها معهم هؤلاء اليهود... فإذا عاد الشعب اليهودي تحت حماية ومباركة السلطان، فسيكون هذا حائلا بين محمد علي ومن يخلفه، وبين تحقيق خطته الشريرة في المستقبل"[55]. وأصدر "بالمرستون" فيما بعد أوامره إلى القناصل البريطانيين بوضع اليهود في الدولة العثمانية تحت الحماية البريطانية، ومنع الإساءة إليهم، وطلب من السفير البريطاني في استانبول الإحتجاج لدى الباب العالي على أي عمل عدائي ضد اليهود في الولايات العثمانية[56].

تولى أمور القنصلية البريطانية بعد يونغ المستر "جيمس فن James Finn" (1846- 1864م)، وقد أصبحت حماية اليهود من المهام الأولى في أعمال "فن". فكان عليه أن يأخذ جميع اليهود، سواء كانوا من الرعايا البريطانيين، أم لا، تحت حمايته، وقد شرع عام 1849م بمنح اليهود الروس والنمساويين ممن نزعت جنسياتهم الحماية البريطانية؛ إذ نظمت القنصلية البريطانية في القدس سجلات خاصة منحت فيها شهادات الحماية دون مقابل لليهود الذين لا يستطيعون دفع الرسوم[57]. ولكن بالمرستون فشل في إقناع السلطان العثماني عبد الحميد الأول بالسماح لليهود بالاستيطان غير المحدود في فلسطين أو منحهم امتيازات خاصة فيها.

لم يقتصر دعم بريطانيا على الجهات الرسمية؛ بل امتدّ إلى الجهات غير الرسمية، فتأسست جمعية القدس الأدبية عام 1849م، برئاسة القنصل البريطاني في القدس "فن" بهدف البحث والتحري عن الآثار في الأراضي المقدسة بحدودها التوراتية، واقتصرت عضويتها على البروتستانت[58]، ثم تحولت في عام 1865م إلى "صندوق استكشاف فلسطين Palestine Exploration Fund" في عهد القنصل "نيفين تمبل مور Tempel More Nevin" (1862 - 1890م). خليفة السير "فن"، وقد دعّم هذا القنصل نشاط الصندوق في مجال مسح الأراضي بزعم التنقيب عن الآثار؛ إذ حصل في عام 1869م على فرمان بواسطة السفارة البريطانية في استانبول للتنقيب عن هيكل سليمان في منطقة الحرم الشريف، بعد التعهد بعدم الحاق أضرار بالمسجد الأقصى، وقبة الصخرة، جراء الحفريات[59]. وقد قام هذا الصندوق بدور مهم في تزويد الساسة، والعسكريين البريطانيين بالمعلومات الجغرافية، والتاريخية، والسياسية التي كانوا يحتاجونها، كما كان للعاملين فيه دور كبير في توجيه أنظار اليهود إلى فلسطين.

إن فكرة "عودة اليهود Restoration" لم تقتصر على الساسة ورجال الدولة البريطانيين؛ بل اعتنقها رجال المال

والصناعة، ورؤساء الأندية والجمعيات، الذين آزروا "بالمر ستون" وغيره من صانعي القرار في بريطانيا في العمل على إيجاد وطن لليهود في فلسطين. ففي عام 1845م قدّم "إدوارد متيفورد Edward Mitford"، وهو من أنصار بالمر ستون، مذكرة للحكومة البريطانية لإعادة توطين اليهود، وإقامة دولة خاصة بهم تحت الحماية البريطانية، للسيطرة على طرق التجارة إلى الشرق[60]. كما أن أحد الصهاينة من غير اليهود وهو الكولونيل "جورج جولر George Gawler" - الذي عمل فترة حاكماً لجنوب استراليا - تقدم باقتراح إلى الحكومة البريطانية بإنشاء مستوطنات يهودية في فلسطين، وكان مما قاله في إحدى المناسبات: "لقد وضعت العناية الإلهية سوريا ومصر بين انجلترا وبين أعظم مناطق إمبراطورياتها... إن استيلاء أي دولة على مصر وسوريا يهدد تجارة بريطانيا... وقد آن الأوان كي تقوم بريطانيا بتنمية سوريا وإحيائها بواسطة أبناء الأرض الحقيقيين، أبناء إسرائيل[61]" كما دعا رجل الصناعة البريطاني "إدوارد كازاليت Edward Cazalet" إلى إقامة محمية بريطانية في فلسطين، يكون هدفها إعادة اليهود، وربط البلاد بصورة دائمة ببريطانيا[62]، واقترح "تشارلز وارن Charles Warren" - وهو من العاملين في صندوق اكتشاف فلسطين- في كتابه: "أرض الميعاد The Land of Promise" بأن تسلم الأرض المقدسة - نظرًا لإفلاس الدولة العثمانية - لمدة عشرين عامًا إلى شركة الهند الشرقية لتسدد الدولة العثمانية التزاماتها... وستكون مهمة هذه الشركة توطين اليهود في البلاد بصورة تدريجية، بحيث تؤول البلاد آخر الأمر إلى ملكيتهم وتصبح تحت حكمهم[63].

رابعًا: تنظيم الهجرات اليهودية إلى القدس وموقف الدولة العثمانية.

اشترى اليهودي البريطاني "السير موسى مونتفيوري" قطعة أرض في القدس عام 1859م، وذلك بموجب فرمان من السلطان العثماني لبناء مشفى، ولكنه أقام عليها مساكن شعبية لليهود بعد تدخل السفير البريطاني في استانبول لدى السلطات العثمانية. وتعدّ أول أرض يملكها اليهود في القدس[64]. وقد سمي هذا الحي فيما بعد باسم "حي مونتفيوري". وقد كانت هذه الحادثة فاعلة في إرساء دعائم الاستيطان اليهودي في القدس، بحيث لم تمض فترة قصيرة من الزمن حتى تم إنشاء العديد من الأحياء اليهودية في المدينة، وبلغت ثمانية أحياء عام 1892م[65].

ونتيجة للجهود البريطانية الرسمية والشعبية، ازداد عدد الهجرات اليهودية إلى القدس وضواحيها؛ إذ تضاعفت أعداد اليهود خلال الفترة في (1840- 1880م) من عشرة آلاف (10.000) إلى خمسة وعشرين ألف (25.000) يهودي[66]. وورد عند "بن أريه Bin Arieh": أن عدد اليهود وصل إلى سبعة عشرة ألف (17.000)، عام 1880م[67]. ووفقًا للإحصاءات العثمانية فقد بلغت أعدادهم ثلاثة آلاف وسبعمائة وثمانين (3.780) يهوديًا[68].

اتخذت الهجرة اليهودية طابعًا جديًا، نتيجة للطرد الذي تعرض له اليهود في كثير من بلدان العالم. وعلى إثر اغتيال قيصر روسيا في مارس 1881م، قامت السلطات الروسية بطرد اليهود لضلوع منظمة "أحباء صهيون Chovevei Zion"[69] باغتيال القيصر[70]. يُعدُّ هذا التاريخ نقطة تحول في أهداف اليهود للهجرة إلى القدس، فبعد أن كانت الأسباب دينية وهي: "إنهاء أيامهم في المدينة"[71] تحولت إلى أسباب سياسية في البحث عن وطن في فلسطين، لاسيما بعد الاحتلال البريطاني لمصر عام 1882م. ونظرًا لفقر هؤلاء المهاجرين فقد حرصت السلطات البريطانية على تهجيرهم إلى القدس لأن بقاءهم في بريطانيا سيجعلهم ينافسون العمالة على فرص العمل في المدن البريطانية.

وجد اليهود في أثريائهم المعين لهم في تنظيم هجراتهم إلى فلسطين، وعلى وجه الخصوص إلى القدس، فقد أسهم البارون "أدموند دي روتشل Rothschild "Edmond de (ثري يهودي فرنسي) بدور فاعل في تنظيم أول هجرة جماعية يهودية إلى فلسطين عام 1882م[72]، ثم وفدت بعد ذلك عدة مئات من العائلات اليهودية من اليمن، وبغداد، والمغرب، وبخارى، إلى القدس بين عامي 1881 و1890م؛ إذ ارتفع عدد اليهود في القدس إلى عشرين ألف (20.000) نسمة، ثم تزايد العدد حتى أصبح ثمانية وعشرين ألف (28.000) نسمة عام 1895م، فشكلوا بذلك ما نسبته 60% من مجموع اليهود في فلسطين[73].

عقد المؤتمر الصهيوني الأول في مدينة "بازل Basle" بسويسرا عام 1897م، وقد حضره مائتان وأربعة (204) مناديب من مختلف الهيئات، والمنظمات، والتجمعات الصهيونية في العالم، وتم انتخاب الدكتور "ثيودور هيرتزل Theodor Herzel"[74] رئيسًا للمؤتمر. وقد خرج هذا المؤتمر بفكرة إقامة دولة اليهود في فلسطين، كما قرر المؤتمرون إقامة الإتحاد الفيدرالي الصهيوني لكسب الدعم العالمي لمفهوم دولة اليهود في فلسطين[75]. وقد علق "هرتزل" في نهاية المؤتمر قائلاً: "في بازل أقمت الدولة اليهودية، وإذا ما قلت اليوم هذا القول علناً فسأواجه بسخرية من العالم؛ ولكن ربما بعد خمس سنوات، بالتأكيد بعد خمسين سنة، سيرى الدولة كل إنسان، وسيعترف بها الجميع[8].

تنامت الهجرة اليهودية بعد ذلك إلى فلسطين بشكل عام، والقدس بشكل خاص؛ إذ ورد أن أعداد اليهود وصلت إلى أربعين ألف (40.000) نسمة عام 1904م، وكان ما يقارب العشرة آلاف (10.000) نسمة منهم مسجلين في القنصليات الأجنبية، وما يقارب الخمسة عشر ألف (15.000) نسمة في سجلات الدولة العثمانية، وخمسة عشر ألف (15.000) نسمة بلا جنسية[76].

شهدت القدس في أعقاب فشل الثورة الروسية عام 1905م موجة جديدة من الهجرة اليهودية بسبب الاضطهاد الذي ألمّ باليهود، فقد وصلت أعداد اليهود في القدس إلى ثمانية وأربعين ألف (48.000) نسمة عام 1912م[77]. ولكن هذا العدد عاد وانخفض إلى ما يقارب النصف مع بداية الحرب العالمية الأولى (1914- 1917م) بسبب هجرة الكثير من اليهود إلى مصر[78].

تغيرت سياسة الدولة العثمانية تجاه الهجرة اليهودية من حين لآخر؛ فبعد إعلان الدولة العثمانية قانون تملك الأجانب عام 1868م، وتوقيع السفراء الأجانب على ما جاء فيه من شروط بهدف السماح لرعايا هذه الدول بالتملك داخل حدود الدولة العثمانية - باستثناء الحجاز- استفاد اليهود من حملة الجنسيات الأجنبية من هذا القانون، فأخذوا بشراء الأراضي في القدس[79].

لذا اتخذت الحكومة العثمانية بعض الإجراءات للحد من الهجرة اليهودية إلى فلسطين في فترة حكم السلطان عبد الحميد الثاني (1876- 1908م). فقد لفت عدد المهاجرين الكبير انتباه متصرف القدس رؤوف باشا (1876- 1888م) فأرسل إلى استانبول يستوضح عن الإجراءات التي يتخذها بشأن هذه المسألة[80]، فأصدر الباب العالي قانونًا يحرّم الهجرة اليهودية إلى فلسطين، وشراءَهم الأراضي، عام 1882م[81]، ولكن - وبسبب الضغط المتوالي على السلطات العثمانية في مسألة هجرة اليهود إلى القدس - تساهلت الحكومة العثمانية بأن سمحت لليهود بزيارة القدس مدة ثلاثين يومًا، فاحتجت الدول الأوربية على هذه القيود لتعارضها مع نظام الامتيازات الأجنبية، فاتخذ الباب العالي قرارًا رسميًا عام 1887م، حدد بموجبه إقامة اليهود في فلسطين بثلاثة أشهر، شريطة أن يتم حجز جواز

سفر المهاجرين الوافدين بحجة زيارة الأماكن الدينية المقدسة، ومنحهم ورقة حمراء أعدت لهذا الغرض[82]. ولكن بالرغم من هذه الإجراءات الهادفة للحد من هجرة اليهود إلى القدس، فقد استمر وصولهم إليها، ووقفت القنصلية البريطانية إلى جانب المهاجرين اليهود في تحدي قرارات تقييد الهجرة[83]. وقد قدم أهالي القدس احتجاجًا إلى الصدر الأعظم، حمل توقيع خمسمائة شخص من سكان المدينة الذين احتجوا ضد الهجرة اليهودية، وحيازة الأراضي. وتكررت المحاولة مرة أخرى عام 1891م؛ إذ أرسل فريق من وجهاء القدس عريضة إلى الباب العالي يطلبون فيها وقف هجرة اليهود، ومنعهم من امتلاك الأراضي، والسبب هو أن اليهود كانوا يستولون على الأرض من أيدي السكان، ثم يسيطرون تدريجياً على التجارة المحلية[84].

تراجعت الدولة العثمانية أمام ضغط بريطانيا وفرنسا، فاضطرت إلى التصريح عام 1888م بأن القيود الجديدة لن تطبق إلا بحق المهاجرين بأعداد كبيرة وليس بحق الذين يأتون فرادى. استغلت القنصلية البريطانية هذا التصريح فمنحت عام 1893م حمايتها لأكثر من مائتي (200) عائلة يهودية[85].

سعت الدولة العثمانية لدى بريطانيا أواخر عام 1898م لتعديل بعض المواد من معاهدات الامتيازات البريطانية التي عقدتها معها سابقاً. وتتعلق تلك المواد بالتسهيلات الممنوحة للرعايا البريطانيين في الإقامة والسفر إلى الأراضي العثمانية، إلا أن الخارجية البريطانية رفضت وضع القيود على سفر رعاياها إلى فلسطين أو غيرها من الولايات العثمانية. وفي خضم حركة التغلغل الأجنبي، والنشاط الاستيطاني، والحظر الذي فرضته استانبول على الهجرة، وبيع الأراضي، كانت الحركة الصهيونية تبذل الأموال الطائلة لإغراء البائعين والسماسرة، والتأثير على موظفي الجهاز الإداري لتسهيل مهمة تسجيلها في الدوائر الرسمية، مما دفع الباب العالي إلى إصدار أوامره عام 1898م والتي قضت بعدم "جواز بيع الأراضي الأميرية الواقعة في ضواحي القدس الشريف لأجنبي أو لوطني"[86].

خامسًا: النشاط الصهيوني بعد مؤتمر بازل.

سعت الحركة الصهيونية بعد عقد مؤتمر "بازل" لدى الدولة العثمانية للحصول - بالشكل الرسمي - على موطئ قدم في فلسطين؛ بحيث سعى "هرتزل" إلى مقابلة السلطان عبد الحميد الثاني منذ عام 1896م، فتمت موافقة السلطان في مايو 1901م بعد أن رفض ذلك لأكثر من مرة[87]. وكانت المقابلة الأولى والأخيرة.

قدم هرتزل في هذا اللقاء عرضاً جاء فيه: "ستتولى الحركة الصهيونية مهمة ترتيب دعم أثرياء اليهود الإقتصادي لتطوير الإمبراطورية مقابل اعتراف السلطان بحق اليهود في إقامة دولتهم"[88]. وقد قدّر هرتزل ثمن فلسطين بأربعة ملايين جنيه، ولكن السلطان عبد الحميد رفض هذا العرض[89]. وقد كرر هرتزل محاولاته تلك، غير أنَّ السلطان رفض بشدة، إذ يرد أن السلطان بعث إلى هرتزل رسالة شفوية بواسطة صديقه "نيولنسكي Newlinsky" الآتي: أنصحك أن لا تسير أبداً في هذا الأمر، لا أقدر أن أبيع ولو قدمًا واحداً من البلاد؛ لأنها ليست لي، بل لشعبي، لقد حصل شعبي على هذه الإمبراطورية بإراقة دمائهم، وقد غذوها فيما بعد بدمائهم، وسوف نغطيها بدمائنا قبل أن نسمح لأحد باغتصابها منا، لقد حاربت كتيبتان من جيشنا في سوريا، وفي فلسطين، وقتل رجالنا الواحد تلو الآخر، غير أنَّ أحدًا منهم لم يرض التسليم، وفضلوا أن يموتوا في ساحة القتال، الإمبراطورية التركية ليست لي، وإنما للشعب التركي، لا أستطيع أبداً أن أعطي أحداً أي جزء منها، ليحتفظ اليهود ببلاييهم، فإذا قسمت الإمبراطورية فقد

يحصل اليهود على فلسطين دون مقابل، إنما لن تقسم إلا على جثثنا، ولن أقبل بتشريحنا لأي غرض كان"[90].

تحولت أنظار هرتزل إلى وساطة فلسطينية، ووقع اختياره على النائب السابق في البرلمان العثماني (يوسف الخالدي)، وقد كان صاحب نفوذ لدى الباب العالي، فكتب له رسالة شرح فيها أن الحركة الصهيونية ليست استعمارية، ولا مغزى سياسي لها، وهي ترمي إلى إنعاش البلاد المقدسة، ومشاركة أهلها العرب، ويطلب منه التوسط لدى الباب العالي، وإلا فاليهود سيتحولون إلى نقطة أخرى من العالم، فتخسر تركيا وفلسطين الملايين التي بالإمكان أن تصرف على تعميرها وإنعاشها، إلا أن الوساطة فشلت[91]، لذا لجأ هرتزل بعد الفشل الذي مني به لدى السلطان العثماني إلى التركيز على بريطانيا، وقد بدأ يتضح له أكثر فأكثر أنها هي الدولة الوحيدة التي كانت تمتلك الإرادة والقدرة على تنفيذ مشروع الاستيطان اليهودي في فلسطين، فالتقى مع "جوزيف تشمبرلن Joseph Chambelin" وزير المستعمرات، إذ كان الأخير يعتقد بأن إنشاء كيان سياسي يهودي في منطقة خاضعة للنفوذ البريطاني يضمن لبلاده وجود قوة موالية لها تعمل على تثبيت نفوذها ودعمه، لا سيما وأن معظم المؤسسات المالية اليهودية كانت تتخذ من العاصمة البريطانية مقرًا لها.

تكررت المحاولات الصهيونية بتوسيط البريطانيين لدى السلطان عبد الحميد، للحصول على مبتغاهم، إلا أن جميع محاولاتهم باءت بالفشل، إلى أن جاءت جمعية الإتحاد والترقي إلى الحكم، بعد ثورتها على السلطان عبد الحميد عام 1908م؛ إذ قدم هؤلاء التسهيلات للهجرة، والاستيطان، وشراء الأراضي، بعد حصولهم على المال من اليهود لدعم الخزينة العثمانية التي تعاني بسبب حروبها في البلقان[92].

ألغت حكومة الإتحاد والترقي جميع القيود على الهجرة، وامتلاك الأراضي[93]. ويذكر بنو المرجة مفاخرة أحد اليهود بما توصلوا إليه مع الاتحاد والترقي بما يلي: "إن الاتحاديين نفذوا بأربعمائة ألف ليرة بريطانية ما لم ينفذه عبد الحميد بملايين"[94].

دخلت الدولة العثمانية الحرب العالمية الأولى، وأعلنت الحرب ضد دول الحلفاء (بريطانيا - فرنسا - روسيا) في نوفمبر1914م. وأُعلن النفير العام، وأُلغي نظام الامتيازات الأجنبية، أما الحركة الصهيونية فقد وقفت بداية الحرب على الحياد، وعندما مالت كفة الحرب إلى مصلحة الحلفاء انضمت إلى هذه الدول، وخاصة بريطانيا، وزار "حاييم وايز مان chaim weizman" لندن واستطاع توثيق التحالف مع الحكومة البريطانية، وصولاً إلى إصدار "تصريح بلفور Balfour Declaration" في 2 نوفمبر1917م، الذي تضمن وعدًا بريطانيًا للحركة الصهيونية بإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين.

الخاتمة:

شكلت القدس في العهد العثماني (1516-1917م) حالة خاصة في تطورها السكاني، و الإجتماعي، والإداري، و الإقتصادي، لارتباط الحياة فيها بمصالح الدول المختلفة، ولقد خلص البحث إلى النتائج الآتية:

1. إن نظام الامتيازات الأجنبية الذي منحته الدولة العثمانية للدول الأوربية كان الأساس في زيادة الوجود اليهودي في القدس.
2. تزايد النفوذ الأوربي في القدس خلال فترة حكم محمد علي باشا لبلاد الشام (1830- 1840م)، إذ اُتُّبِعَتَ سياسات أدت إلى زيادة التواجد الأوربي في القدس، وبعد عودة القدس لحكم الدولة العثمانية استمرت السياسات نفسها، مما أدى إلى زيادة التواجد اليهودي في القدس بفعل التغلغل الأوربي.

3. شكل العام 1882م نقطة تحول مهمة في زيادة التواجد اليهودي في القدس نتيجة للجهود البريطانية في تنظيم الهجرات اليهودية بعد احتلالها لمصر، وسعيها لبسط نفوذها في بلاد الشام للحيلولة بين الدولة العثمانية ومصر التي ازدادت أهميتها الاستراتيجية بعد افتتاح قناة السويس عام 1869م لإشرافها على طرق المواصلات والتجارة بين بريطانيا ومستعمراتها في الهند.

4. تزايدت أعداد اليهود في بريطانيا بعد تعرضهم للاضطهاد وفي روسيا وطردهم منها بسبب محاولة اغتيال القيصر الروسي عام 1881م، لذلك سعت بريطانيا إلى تهجير اليهود الروس إلى فلسطين والقدس على نحو خاص لأن أغلبهم فقراء وحتى لا يشكلوا عبئًا اقتصاديًا في المدن البريطانية وينافسوا العمال البريطانيين على فرص العمل.

5. تغلغل نفوذ الحركة الصهيونية في دوائر صنع القرار البريطاني ترافق مع تراجع أهمية بقاء الدولة العثمانية بالنسبة لبريطانيا التي عقدت الاتفاق الودي مع روسيا عام 1907م لتتفرغ لمواجهة ألمانيا، مما جعل بريطانيا تعمل على تعزيز تواجد اليهود في فلسطين والقدس لإقامة دولتهم بعد إقتسام ممتلكات الدولة العثمانية وصولاً لإصدار تصريح بلفور في 2 نوفمبر1917م الذي أسس لقيام وطن قومي لليهود في فلسطين.

الهوامش:

(1) Hudson,Michel, **The Transformation Of Jerusalem in AsaliJerusalem** under the ottomans: In Asali (Editor), Jerusalem in History Scorpion, Buckurst HILL, 1989,P.P.2-6.

(2) الكزاندر شولش، **تحولات جذرية في فلسطين**، الجامعة الأردنية، عمادة البحث العلمي، عمان، 1983م، ص43.

(3) سليمان أبوعزالدين، **إبراهيم باشا في سوريا**، المطبعة العلمية، بيروت 1929م، ص ص172- 173.

(4) أسد رستم، **الأصول العربية لتاريخ سوريا في عهد محمد علي باشا**، مج (5)، جامعة بيروت الأمريكية بيروت، 1934م، ص ص125- 126.

(5) Scholh, Jerusalem :In Asali (Editor)Jerusalem In History, P238.

(6) أسامة الحلبي، **بلدية القدس العربية**، الجمعية الفلسطينية الأكاديمية للشؤون الدولية، بيت صفافا، القدس الشريف، 1993م، ص ص 7- 8.

(7) Scholch, Jerusalem :In Asali (Editor), Jerusalem In History, P240.

(8) Ben Areih, Jerusalem in The 19th Century The old city,St, Martins, New York.1984,P.P.26-28.

(9) Scholch, Jerusalem :In Asali (Editor), Jerusalem In History, . P.P.240-241

(10) Ben Areih, Jerusalem in The 19th Century,P.P. 23-25.

(11) Scholch, Jerusalem :In Asali (Editor), Jerusalem In History, P240.

(12) عارف العارف، **المفصل في تاريخ القدس**، ج1، مكتبة الأندلس، القدس، 1961م، ص316.

(13) Ben Areih, Jerusalem in The 19th Century, P.P. 23-25.

(14) Scholch, Jerusalem :In Asali (Editor), Jerusalem In History, P204.

(15) IBid,P.P204-205.

(16) عادل اسماعيل، **الصراع الدولي حول المشرق العربي (الوثائق الدبلوماسية)، ق (1)، ج (1)**، دار النشر للسياسة والتاريخ، بيروت، 1990م، ص81.

(17) كامل العسلي، **مكانة القدس في تاريخ العرب والمسلمين**، منشورات وزارة الشباب، عمان، 1988م، ص ص289-290.

(18) عز الدين فودة، **قضية القدس في محيط العلاقات الدولية**، منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث، بيروت، 1983م، ص78.

(19) محمد رجائي الريان، **القدس في العهد العثماني** في كتاب **القدس عبر العصور**، تحرير علي محافظة، جامعة اليرموك، إربد، 2001م، ص252.

(20) عز الدين فودة، **قضية القدس**، ص82.

(21) Scholch, Jerusalem : In Asali(Editor),Jerusalem In History,P204.

(22) هنري كتف، **القدس الشريف**، ترجمة نور الدين كتانة، مكتبة الأقصى، عمان، 1989م، ص54.

(23) خيرية قاسمية، **النشاط الصهيوني في الشرق العربي وصداه**، 1908 - 1918م، (د.ن)، بيروت، 1973م، ص12.

(24) اسحاق جرينفيم، **الحركة الصهيونية**، ترجمة جودت السعد، دار الجاحظ للنشر والتوزيع، إربد، 1984م، ص18.

(25) Esco Foundation for Palestine,**Palestine a study of Jewish-Arab and British Policies,** puplished for the Esco Foundation for Palestine, New Haven, Yale, 1970,P.P17-19.

(26) الكزاندر شولش، **تحولات جذرية**، ص ص60-61.

(27) على محافظة، **العلاقات الألمانية الفلسطينية، "1841- 1954"**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1981م، ص41.

(28) الكزاندر شولش، **تحولات جذرية**، ص64.

(29) عارف العارف، **المفصل في تاريخ القدس**، ص ص292- 293.

(30) عادل إسماعيل، **الصراع الدولي (الوثائق الدبلوماسية)**، ص29.

(31) **المصدر نفسه**، ص30.

(32) Poarth, Yashua, Alhajj Amin, Al Husayni, Mufte of Jerusalem, Asian and African studies, London, 1970,P.P.18-21.

(33) عزالدين فوده، **قضية القدس**، ص112.

(34) الكزاندر شولش، **تحولات جذرية**، ص72.

(35) محمد رجائي الريان، **القدس في العهد العثماني**، ص259.

(36) علي محافظة، **العلاقات الألمانية الفلسطينية**، ص58.

(37) علي محافظة ، **العلاقات الفلسطينية الألمانية** ، ص 82.

(38) مصطفى الدباغ، **بلادنا فلسطين**، ج، دار الجليل، بيروت، 1973م، ص42؛ عزمي أبو عليان، **القدس بين الاحتلال والتحرير عبر العصور القديمة والوسطى والحديثة**، 300**ق.م** -1967**م**. (د.ن)، عمان، 1993م، ص224.

(39) F.O 195/2127.No.34.Jerusalem, Dec, 1902.

(40) **الموسوعة الفلسطينية، الدراسات الخاصة**، ق(2)، ج(2)، هيئة الموسوعة الفلسطينية بيروت، 1990م، ص844.

(41) **F.O 78/3131.No.3.Jerusalem,** Feb, 1880.

(42) Scholch, Jerusalem : In Asali (Editor), Jerusalem In History,P.204.

(43) أمين محمود، **مشاريع الاستيطان اليهودي منذ الثورة الفرنسية حتى قيام الحرب العالمية الأولى**، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1984م، ص ص39-40.

(44) سمير جريس، القدس، **المخططات الصهيونية، الإحتلال والتهويد**، مؤسسات الدراسات الفلسطينية، بيروت، 1981م، ص 16.

(45) فاطمة خير، **إستيطان القدس قبل قيام إسرائيل**، صامد الإقتصادي ، ع (109)، مؤسسة صامد، دار الكرمل للطباعة والنشر، عمان، 1989م، ص57.

(46) Scholch, Jerusalem : In Asali (Editor), Jerusalem In History, P.206.

(47) عارف العارف، **المفصل في تاريخ القدس**، ص291.

(48) Scholch, Jerusalem : In Asali (Editor), Jerusalem In History,P.202.

(49) محمد رجائي الريان، **القدس في العهد العثماني**، ص255.

(50) Bovis, Eugene, Jerusalem, question, 1917-1968.Stanford, California,1971,P.1.

(51) الكزاندر شولش، **تحولات جذرية**، ص ص63-65.

(52) علي محاقظة، **العلاقات الألمانية الفلسطينية**، ص43.

(53) **المرجع نفسه**، ص44.

(54) Hyamson,Albert, Palestine under British Mandate 1920-1948, Green Wood, wastport,1976,P.P.5-6.

(55) موفق بني المرجه، **صحوة الرجل المريض أو السلطان عبدالحميد الثاني والخلافة**، مؤسسة صقر الخليج للنشر والتوزيع، الكويت، 1984م، ص216.

(56) الموسوعة الفلسطينية، **الدراسات الخاصة**، ص842.

(57) Hyamson- The British Consulate, vol 1,P.P.7-10.

(58) الموسوعة الفلسطينية، **الدراسات الخاصة**، ص842.

(59) **المرجع نفسه**، ص842.

(60) أمين محمود، **مشاريع الاستيطان اليهودي**، ص ص24-25.

(61) **المرجع نفسه**، ص 37.

(62) الكزاندر شولش، **تحولات جذرية**، ص79.

(63) الكزاندر شولش ، **تحولات جذرية** ، ص79.

(64) Hyamson, The British Consulate, vol 1,P.P262-265.

(65) **أمين محمود، مشاريع الإستيطان اليهودي**، ص20.

(66) أحمد عبدالرحيم مصطفى، **موقف الدولة العثمانية من الهجرة الصهيونية إلى فلسطين**، المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام مج(3)، الجامعة الأردنية، عمان، 1989م، ص 676.

(67) Bin Areih, The growth of Jerusalem,P.P.262-265.

(68) Scholch, Jerusalem :In Asali(Editor),Jerusalem In History,P.209

(69) **أحباء صهيون**: حركة تهدف إلى تجميع الشعب اليهودي في فلسطين، ظهرت بين يهود روسيا في بداية ثمانينات القرن التاسع عشر، وقد ترأسها ليو بانكسر Leo Pnisker عام 1884م الداعي الأول للحركة الصهيونية والاستيطان الصهيوني في فلسطين. انظر :اسحاق حرينفيم، **الحركة الصهيونية**، ص ص 37-39.

(70) موفق بني المرجة، **صحوة الرجل المريض**، ص216.

(71) AL-KHALIL, Tawfilk, Jerusalem from 1947 To 1967, Apolitical survey, 3rd Edition, Amman, 1998,P.5.

(72) إسحاق جرينفيم، **الحركة الصهيونية**، ص 63.

(73) احمد عبدالرحيم، **موقف الدولة العثمانية**، ص664.

(74) ثيودور هيرتيزل: يهودي بولوني، ولد في بودابست (1860- 1904م)، وأقام في فينا، اشتغل في التأليف المسرحي، والصحافة، وألف كتاب " الدولة اليهودية" عام 1896م، والمعروف أن الصهيونية بقيت مقتصرة على التخطيط حتى تمكن هرتزل من عقد مؤتمر بازل. و يعتبر المؤسس الأول للصهيونية كحركة سياسية، مات في عام 1904م ونقلت رفاته إلى فلسطين. يوسي سليمان، **الإسرائيليون الجدد، مشهد تفصيلي لمجتمع متغير**، ترجمة مالك فاضل البدري، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، 1992م، ص37.

(75) ثيودور هرتزل، **يوميات هرتيزل**، أعداد أنيس الصايغ، ترجمة هيلدا شعبان، (د.ن) بيروت، 1967، ص89.

(76) وجيه كوثراني، **فرنسا وفلسطين والصهيونية في مطلع القرن العشرين**، المؤتمر الدولي الثالث لبلاد الشام، مج3، الجامعة الأردنية، عمان، 1989م، ص54.

(77) سمير جريس، **القدس، المخططات الصهيونية**، ص19.

(78) محمود العابدي، **قدسنا**، معهد البحوث و الدراسات العربية، القاهرة، 1972م، ص 135.

(79) أمين أبو بكر، **ملكية الأرض في متصرفية القدس 1858- 1918م**، مؤسسة عبدالحميد شومان، عمان، 1996م، ص600.

(80) آريه افنيري، **دعوة نزع الملكية والإستيطان اليهودي والعرب في الفترة 1878-1948م**، ترجمة شريف البرغوثي، دار الجليل للنشر والدراسات، عمان، 1986م، ص73.

(81) عارف العارف، **المفصل في تاريخ القدس**، ص296.

(82) مصطفى الدباغ، **بلادنا فلسطين**، ص ص 49- 50.

(83) Hyamson, The British,II,P.477.

(84) محمود العابدي، **قدسنا**، ص134.

(85) محمود العابدي، **قدسنا**، ص135.

(86) أمين أبو بكر، **ملكية الأراضي**، ص600.

(87) F.O.37/356.No.92321(No.26)Jerusalem, Nov.1907.

(88) يوسي سليمان، **الإسرائيليون الجدد**، ص 44.

(89) هرتزل، **يوميات هرتزل**، ص47.

(90) هرتزل، **يوميات هرتزل**، ص 35.

(91) بيان الحوت، **القيادات و المؤسسات السياسية في فلسطين**، 1917- **1948م**، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، 1986م، ص 14.

(92) موفق بني المرجة، **صحوة الرجل المريض**، ص228.

(93) F.O.465/No.22326.Jerusalem, April, 1914.

(94) موفق بني المرجة، **صحوة الرجل المريض**، ص 228.

قائمة المصادر والمراجع:

وثائق وزارة الخارجية البريطانية (foreign office):

- F.O 195/2127.No.34.Jerusalem, Dec, 1902.
- F.O 78/3131.No.3.Jerusalem, Feb, 1880.
- F.O.37/356.No.92321(No.26)Jerusalem, Nov.1907.
- F.O.465/No.22326.Jerusalem, April, 1914.

المصادر والمراجع الاجنبية:

- AL-KHALIL, Tawfilk, Jerusalem from 1947 To 1967, Apolitical survey, 3rd Edition, Amman, - 1998.

- Ben Areih, Jerusalem in The 19th Century The old city,St, Martins, New York.1984.

- Bovis, Eugene, Jerusalem, question, 1917-1968.Stanford, California,1971.

- Esco Foundation for Palestine,Palestine a study of Jewish-Arab and British Policies, puplished for the Esco Foundation for Palestine, New Haven, Yale, 1970.

- Hyamson,Albert, Palestine under British Mandate 1920-1948,GreenWood, wastport,1976.

- Poarth, Yashua, Alhajj Amin, Al Husayni, Mufte of Jerusalem, Asian and African studies, London, 1970.

المصادر والمراجع العربية:

- أحمد عبدالرحيم مصطفى، **موقف الدولة العثمانية من الهجرة الصهيونية إلى فلسطين**، المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام مج(3)، الجامعة الأردنية، عمان، 1989م.

- آريه افنيري، **دعوة نزع الملكية والإستيطان اليهودي والعرب في الفترة** 1878- 1948م، ترجمة شريف البرغوثي، دار الجليل للنشر والدراسات، عمان، 1986م.

- أسامة الحلبي، **بلدية القدس العربية**، الجمعية الفلسطينية الأكاديمية للشؤون الدولية، بيت صفافا، القدس الشريف، 1993م.

- اسحاق جرينفيم، **الحركة الصهيونية**، ترجمة جودت السعد، دار الجاحظ للنشر والتوزيع، إربد، 1984م.

- أسد رستم، **الأصول العربية لتاريخ سوريا في عهد محمد علي باشا**، مج (5)، جامعة بيروت الأمريكية بيروت، 1934م.

- أمين أبو بكر، **ملكية الأرض في متصرفية القدس** 1858-1918م، مؤسسة عبدالحميد شومان، عمان، 1996م.

- أمين محمود، **مشاريع الاستيطان اليهودي منذ الثورة الفرنسية حتى قيام الحرب العالمية الأولى**، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1984م.

- بيان الحوت، **القيادات و المؤسسات السياسية في فلسطين**، 1917-1948م، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، 1986م.

- ثيودور هرتزل، **يوميات هرتيزل**، أعداد أنيس الصايغ، ترجمة هيلدا شعبان، (د. ن) بيروت، 1967.

- خيرية قاسمية، **النشاط الصهيوني في الشرق العربي وصداه**، 1908 - 1918م، (د. ن)، بيروت، 1973م.

- سليمان أبوعزالدين، **إبراهيم باشا في سوريا**، المطبعة العلمية، بيروت 1929م.

- سمير جريس، القدس، **المخططات الصهيونية، الإحتلال والتهويد**، مؤسسات الدراسات الفلسطينية، بيروت، 1981م.

- عادل اسماعيل، **الصراع الدولي حول المشرق العربي (الوثائق الدبلوماسية)، ق1، ج1**، دار النشر للسياسة والتاريخ، بيروت، 1990م.

- عارف العارف، **المفصل في تاريخ القدس**، ج1، مكتبة الأندلس، القدس، 1961م.

- عز الدين فودة، **قضية القدس في محيط العلاقات الدولية**، منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث، بيروت، 1983م.

- عزمي أبو عليان، **القدس بين الاحتلال والتحرير عبر العصور القديمة والوسطى والحديثة**، 300ق.م -1967م. (د.ن)، عمان، 1993م.

- على محافظة، **العلاقات الألمانية الفلسطينية**، "1841-1954"، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1981م.

- كامل العسلي، **مكانة القدس في تاريخ العرب والمسلمين**، منشورات وزارة الشباب، عمان، 1988م.

- الكزاندر شولش، **تحولات جذرية في فلسطين**، الجامعة الأردنية، عمادة البحث العلمي، عمان، 1983م.

- محمود العابدي، **قدسنا**، معهد البحوث و الدراسات العربية، القاهرة، 1972م.

- مصطفى الدباغ، **بلادنا فلسطين**، ج، دار الجليل، بيروت، 1973م.

- **الموسوعة الفلسطينية، الدراسات الخاصة**، ق(2)، ج(2)، هيئة الموسوعة الفلسطينية بيروت، 1990م.

- موفق بني المرجه، **صحوة الرجل المريض أو السلطان عبدالحميد الثاني والخلافة**، مؤسسة صقر الخليج للنشر والتوزيع، الكويت، 1984م.

- هنري كتف، **القدس الشريف**، ترجمة نور الدين كتانة، مكتبة الأقصى، عمان، 1989م.

- وجيه كوثراني، **فرنسا وفلسطين والصهيونية في مطلع القرن العشرين**، المؤتمر الدولي الثالث لبلاد الشام، مج3، الجامعة الأردنية، عمان، 1989م.

-

- يوسي سليمان، **الإسرائيليون الجدد، مشهد تفصيلي لمجتمع متغير**، ترجمة مالك فاضل البدري، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، 1992م.

كتاب لعدة مؤلفين.

- محمد رجائي الريان، **القدس في العهد العثماني** في كتاب **القدس عبر العصور**، تحرير علي محافظة، جامعة اليرموك، إربد، 2001م.

- Hudson,Michel, The Transformation Of Jerusalem in AsaliJerusalem under the ottomans: In Asali (Editor), Jerusalem in History Scorpion, Buckurst HILL, 1989.

- Scholh, Jerusalem :In Asali (Editor)Jerusalem In History.

• الدوريات.

- فاطمة خير، **إستيطان القدس قبل قيام إسرائيل**، صامد الإقتصادي، ع(109)، مؤسسة صامد، دار الكرمل للطباعة والنشر، عمان، 1989م.

The effect of foreign prerogatives system on the Jewish existence in Al-Quds in the Ottoman Era (1516-1917)

Ahmed Ahmed Alarami.

Abstract:

The study pointed out the effect of the foreign prerogative system on the Jewish existence in Al-Quds in the Ottoman Era(1516-1917) so that it highlighted the administrative situation in Al-Quds. After that, the research illustrated the reflection of the foreign prerogative system on Al-Quds and the European invading in Al-Quds. Moreover, the study illustrated the role of Britain in enhancing the Jewish existence in Al-Quds by organizing the Jewish immigrations to Al-Quds. Furthermore, the study pointed out the Zionistic activity, after Basal conference, till the British invading for Al-Quds in 1917.